مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (25) العدد (18)2003
Tishreen University Journal for Studies and Scientific Research- Arts and Humanities Science Series Vol (25) No (18) 2003

الحنين إلى الأهل في شعر صدر الإسلام

الدكتور عبد الكريم يعقوب*
وهران حبيب**

(قبل للنشر في 2003/11/23)

□ الملخّص □

الحنين إلى الأهل شعور وجداني ارتبط في شعر صدر الإسلام بجملة من الظروف الذاتية والسياسية والإدارية، عمّقت إحساس بعض الشعراء بالاغتراب عن الأهل، وفجرت حنينهم إلى لقاء القوم.

وتتقصى هذه الدراسة الأشعار التي أنشدت في الحنين إلى الأهل في صدر الإسلام، وتعالجها في ضوء الأحوال النفسية، والتاريخية، والاجتماعية التي كونت أزمة الاغتراب لدى فئة من الشعراء في طيات أبيات الحنين وقصائده.

لقد أثارت هجرة بعض الشباب إلى الأمصار إحساس بعض الشعراء الشيوخ بالضعف والانهزام، ورُوِّعت الأمهات بثكل الأبناء الأسرى في سجون الأعداء، وأحس بعض الشعراء الأسرى بالمسؤولية تجاه الأمهات والأخوات في الوطن، وعبرت بعض الشاعرات الأزواج والأسيرات، عن حاجتهن الملحة إلى رعاية الأهل وحماية الإخوة، وبكى بعض الشعراء موت الإخوة والأبناء بحرقة نفسٍ تتحسر على مضي زمان الوصال، وترثي فعل الزمان في استلاب الأهل. وعمقت الهجرة إلى الأمصار، بفعل النظم الإدارية شرخ الانفصال بين الشاعر والقوم، فراح يندب فقد الكيان القبلي، ويبدي تفجعه على تمزق روابط الدم وأواصر النسب.

وكان في الانتماء إلى الجماعة الإسلامية ما يعزز الشعور الديني، ويعمق الروابط الأخوية، فعبر بعض الشعراء عن حزنهم لفقد إخوتهم المسلمين، واختار بعض الشعراء تحقيق ذواتهم ومكاسبهم بعيداً عن الأهل والقوم، لكن الإحساس بالاغتراب كان ينغص عليهم متعة تحقيق الأهداف، ويحرك في نفوسهم الحنين إلى الأهل والقوم.

*أستاذ في قسم اللغة العربية، من كلية الآداب والعلوم الإنسانية، بجامعة تشرين، اللاذقية، سورية.
** □ طالبة دكتوراه في قسم اللغة العربية، من كلية الآداب والعلوم الإنسانية، بجامعة تشرين، اللاذقية، سورية.

مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (25) العدد (18)2003
Tishreen University Journal for Studies and Scientific Research- Arts and Humanities Science Series Vol (25) No (18) 2003

Homesickness in the Poetry of the Prime of Islam

Dr. Abdul Karim Ya`akoub*
Wahran Habib**

(Accepted 23/11/2003)

□ ABSTRACT □

Homesickness is an emotional feeling. It was attached in the poetry of the prime of Islam to a group of political, administrative, personal circumstances that deepened some poets' sensation of emigration from his people and burst their longing to meet their nation.

These studies investigate verses which were chanted for the purpose of homesickness in the prime of Islam treating it in the light of social, historical, psychological states which made up the crisis of emigration for a group of poets in this age trying to bring out the feelings and sensations that were brought about out of loss which the poets portrayed in verses and poems of longing.

The emigration of young men to another countries aroused the old poets' sensation of weakness and defeat, and mothers were frightened of lossing their captured sons in the prison of enemies. Some poets wailed over the death of brothers and sons with their selves burning and moaning for the passage of the time of contact and elegizing the act of time in robbing their people. The emigration to another countries also deepened the gap of separation between the poet and his people, so he went bewailing over the tribal structure showing his groaning over the rupture of blood relationships and kinship.

It had been in the belonging to the Islamic community what reinforced the religious feeling and deepened the brotherly relationships. Therefore, some poets expressed their sadness for the loss of their Muslim brothers, and others chose to realize themselves and their gains away from their people, but the sensation of emigration disturbed the pleasure of achieving aims and moved in their noble selves the longing for their people and nation.

Ø Professor at Arabic Department, Faculty of Arts and Humanities, Tishreen University, Lattakia, Syria.
ØØ Doctorate's student at Arabic Department, Faculty of Arts and Humanities, Tishreen University, Lattakia, Syria.

مقدّمة:

تقتصر معظم الدراسات الأدبية على إيراد ذكر الحنين إلى الأهل في شعر صدر الإسلام، بوصفه حالة وجدانية، ارتبطت بالحنين إلى الوطن، وتمخضت عن جملة من الظروف الذاتية والنظم الإدارية التي استجدت في صدر الإسلام، **وأهم هذه الدراسات:** شعر الفتوح في صدر الإسلام للنعمان القاضي، والحنين والغربة في الشعر العربي الحديث للدكتور ماهر حسن فهمي، والحنين إلى الوطن في الأدب العربي حتى نهاية العصر الأموي لمحمد إبراهيم حوّر، والرثاء في الجاهلية والإسلام للدكتور حسين جمعة.

وتأتي أهمية هذه الدراسة من أنها تخصّ الحنين إلى الأهل بدراسة تحليلية معمقة، تستقرئ الأخبار والأشعار في ضوء الظروف الذاتية والموضوعية للشاعر، وتتخذ من الحدث التاريخي والاجتماعي منطلقاً لفهم النصوص، والكشف عن معاناة الاغتراب عن الأهل، فتدرس نماذج شعرية من حنين الآباء الشيوخ والأمهات الثكالى إلى الأبناء المهاجرين إلى الأمصار، والأسرى المغتربين في السجون، وترصد تلك النماذج بنصوص من حنين بعض الأبناء الأسرى إلى الأمهات والأخوات المستضعفات، ثم تعرض لنصوص من حنين بعض الشعراء إلى إخوتهم المرثيين، وتعكف الدراسة على معالجة بعض النصوص الشعرية التي يعبر فيها بعض الشعراء عن حنينهم إلى أبناء قومهم المهاجرين إلى الأمصار، ويصورون آلامهم الناتجة من الانفصال عن الكيان القبلي والأسري، وتتناول نماذج من رثاء بعض الشعراء القتلى المسلمين، وتعرض لوحة فنية للشماخ بن ضرار الذبياني توحي أبعادها وجزئياتها بحنين الشاعر إلى الرعاية الأسرية.

الدراسة:

ارتبطت ظاهرة الحنين إلى الأهل في شعر صدر الإسلام بظروف الحياة العامة والخاصة، فقد حمل مجيء الإسلام جملة من المستجدات، بدلت نظم المجتمع وحرَّكت في نفوس الشباب اللهفة إلى الجهاد، فهاجروا في سبيل المشاركة في الغزوات والفتوحات، وقد تركوا وراءهم أباءً شيوخاً، ونسوةً مستضعفات، لم يستطيعوا أن يصمدوا أمام نيران الفرقة، ففجروا مشاعرهم نفحاتٍ شعرية، يبكون فيها نأي أبنائهم، ويشكون عقوقهم؛ فهذا أمية بن الأسكر يهاجر ابناه، ويتركانه شيخاً هرماً، يعجز عن أداء حوائجه، فيستثير غيابهما إحساسه بافتقاد الشباب والأهل معاً، يقول[1]:

يـــا أمَّ هيـــثمَ مـــاذا قلـــتُ أَبلانـــي ... ريـــبُ المنـــون وهـــذان الجديـــدانِ
إمّـــا تـــري حَجَـــري قَـــدْركّ جانبُـــهُ ... فقـــد يســـرّكِ صُـــلْباً غيـــرَ كـــدّانِ
ولســـت أُهـــدى بـــلاداً كنـــت أســـكنها ... قـــد كنـــت أهـــدي بهـــا نَفْســـي وصـــحباني
يـــا ابنـــي أميـــةَ إنـــي عنكمـــا غـــانٍ ... ومـــا الغنـــى غيـــر أنـــي مـــرعشٌ فـــاني
يـــا ابنـــي أميـــةَ إنْ لا تشـــهدا كبـــري ... فـــإنَّ نأيَكمـــا والمـــوتُ مـــثلان
أصـــبحتُ هـــزءاً لراعـــي الضَـــأن أعجبـــه ... مـــاذا يريُبـــك منـــي راعـــيَ الضـــانِ
انعـــقْ بضـــأنِك فـــي نجـــمٍ تحفّـــره ... مـــن الأبـــاطحِ واحبسْـــها بجمْـــدانِ
إن تـــرعَ ضـــأناً فـــإني قـــد رعيـــتهمُ ... بـــيضَ الوجـــوهِ بنـــي عمـــي وإخـــواني

فنحن نلتمس في الأبيات تحسر الشاعر على انقضاء زمن الشباب، وهو يوظف صورة الحجر الصلب الذي لان في إبراز المفارقة بين القوة والعجز، فيقوي الإيحاء بالضعف والانهزام. ونصغي إلى جرس الحروف،

فنسمع في تكرار جرس الهمزة في الأفعال (أهدى– أسكنها– أهدي) صرخات الألم والتذمر من الشيخوخة، ثم نسمع في تكرار جرس الهاء (أهدي أهدى) لهاث الشيخ، ونحس قعوده عن السعي وريادة الأصحاب.

لقد كان استحضار ماضي الشباب سبيلاً لتقريع الابنين، وتحذيرهما من غدر الزمان، فالشاعر ينعطف بلهجته الخطابية إلى التنبيه، فيعظّم إثمهما في الهجر، ويهول وقع المصاب، فيجعل قوتهما والنأي سواء، ويصعد من معاناته. وتحت ضغط الإحساس بالعجز يصوغ لنا صورة راعي الَضأن الذي يهزأ بقدراته، فيعمق الإيحاء بالانهزام، ويمعن في تجسيد أزمة الاغتراب، ويمنح ذاته فرصة التنفيس عن حسرات الفقد، بذكريات الشباب التي أتاحت له القدرة على رعاية الأهل، وأبناء العمومة.

وقد جعل الإسلام البر بالوالدين جهاداً في سبيل الله عز وجل، فحذر الأبناء إثم العقوق، وحضهم على طاعة الأبوين ورعايتهم ابتغاء المغفرة، قال الله عز وجل [2]: ***[وَقَضَى رَبُّكَ أَلا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا، فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا]***، وقال تعالى أيضا[3]: ***[وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا]***. وهذا رجل يأتي رسول الله (ص)، ويعلن رغبته في الجهاد فيسأله (ص): (ألك أبوان ؟، فيقول نعم، فيجيبه (ص)، ففيهما فجاهد).[4]

وكان الخليفة عمر (رض) من خير القائمين على تطبيق تعاليم الإسلام؛ ولذلك ربما وجد بعض الشعراء في استثارة عطف الخليفة ما يحقق مناهم في استعادة أبنائهم الغائبين؛ فحين يضيق صدر أمية بن الأسكر بغياب ابنه، يشكو الخليفة عمر بن الخطاب (رض) إلى الله عز وجل، ويرجو عطفه في إعادة ابنه فيقول:[5]

أعـــاذل قَـــدْ عَـــذَلْتِ بغيـــرِ علـــمٍ ... ومـــا يـــدريكِ ويحـــكِ مـــا ألاقـــي
فإمّـــا كنـــت عـــاذلتي فـــردِّي ... كلابـــاً إذ توجَّـــه للعـــراقِ
سأســـتعدي علـــى الفـــاروق ربـــاً ... لـــه رفـــع الحجـــيجُ إلـــى بُســـاقِ
إنِ الفـــاروقُ لـــم يـــردْ كلابـــاً ... علـــى شـــيخين هامَهُمـــا زواقِ
فلـــو فلَـــقَ الفـــؤاد حُمـــاطُ وجـــد ... لهـــمَّ ســـوادُ قلبـــي بـــانفلاقِ

فهو يستحضر العاذلة فنياً؛ ليكون خطابه إليها وسيلة للإفصاح عن المعاناة، فيهول ما يكابده من الشوق، ويصور قلبه ينفطر من حرقة الوجد وأنين الفقد، مستثيراً عطف الخليفة وشفقته. ويبدو أن رقة أبيات الشاعر تؤثر في نفس الخليفة العادل (رض)، فيأمر (رض) بإعادة كلاب إلى أبيه سالما، فتقرعين الشاعر بالرضا، وينعم بقرب ابنه في موقف وجداني صادق، تنقله لنا بعض كتب الأخبار والأدب.[6]

ويخرج ابن أبي خراش الهذلي للغزو مع المسلمين، ويترك أباه بنفث آهاته حسرات تندب غياب الابن، وتحذره مغبة العقوق والإثم، فيرق له قلب الخليفة عمر (رض)، ويأمر بإعادة ابنه، يقول أبو خراش: [7]

ألا مـــن مبلـــغ عنـــي خراشـــاً ... وقـــد يأتيـــك بالنبـــأ البعيـــدُ
وقـــد ياتيـــك بالأخبـــار مـــن لا ... تجهِّـــز بالحـــذاء ولا تزيـــدُ
يناديـــه ليغبقـــه كليـــب ... ولا يـــأتي لقـــد ســـفه الوليـــدُ
فـــرد إنـــاءهَ لا شـــيء فيـــه ... كـــأن دمـــوع عينيـــه الفريـــدُ
ألا فـــاعلم خـــراشُ بـــأن خيـــر الـــ ... مهـــاجر بعـــد هجرتـــه زهيـــدُ

فأبو خراش يجعل حنينه أنباء تقرع أذني الابن، فتفصح عن مواجد الأب وأشواقه، وهو يوظف صورة العبد الذي يرتد بالإناء باكياً، في تهويل الفاجعة التي حرمت الابن رعاية الأهل، ويصعد في البيتين الأخيرين لهجته الخطابية، فيحذر ابنه من عاقبة الهجر، وتسهم الصورة الإيحائية (كمخضوب اللبان ولا يصيد) في تأكيد عبثية الاغتراب، وابتغاء الأجر والمثوبة، في عصيان الأب، وتلبي رغبة الشاعر في استمالة الابن، وإغرائه بالعودة.

وتبلغ عاطفة الحنين أوجها في نفس المخبَّل السعدي، فحين يخرج ابنه شيبان مع سعد ابن أبي وقاص لقتال الفرس، يضحي الشاعر برزقه في سبيل اللحاق به، وينظم أبياتاً يصور فيها سوء حاله، وما يعتمل في داخله من لوعة الفقد وأسى الفراق، حتى يعطف عليه الخليفة عمر بن الخطاب (رض)، ويرد إليه ابنه ليكون عوناً في شيخوخته، يقول المخبّل:[8]

أيهلكني شيبانُ في كلِّ ليلةٍ ... لقلبيَ من خوف الفراقِ وجيبُ
أشيبانُ ما أدراكَ أنْ كلَّ ليلةٍ ... غبقتُك فيها والغَبوقُ حَبيبُ
غبقتُك عُظْماها سناماً أو انبرى ... برزقك بَرَّاقُ المتون أريبُ
أشيبان إن تأبى الجيوش بحدِّهم ... يقاسون أياماً لهنَّ خطوبُ
فإن يكُ غصني أصبحَ اليوم ذاوياً ... وغصنُك من ماء الشباب رطيبُ
فإنِّي حنتْ ظهري خطوبٌ تتابعت ... فمشيي ضعيفٌ في الرِّجال دبيبُ
فلا يعجبنك المرءُ إنْ كانَ ذا غنى ... ستتركهُ الأيام وهو حَريبُ
ويخبرني شيبان أن لن يعقّني ... تعُقُّ إذا فارقتني وتحوبُ
فلا تُدْخِلَنَّ الدهرَ قبرَك حوبةً ... يقوم بها يوماً عليك حسيبُ
إذا قلتُ ترعى قال سوف تُريحني ... من الرَّعي مِذْعانُ العشيِّ خبوبُ

فهو يوظف الفعل (يهلكني) بمعناه ومبناه في المبالغة بتصوير المعاناة، ويظهر قلقه من أن يطول الفراق، ويستديم الحرمان، وتركيب (ما أدراك) الذي يخرج في صيغة الاستفهام الإنكاري يعمق الإيحاء بجهل الابن، وتناسيه واجبات البر بالأب، وعبارة (والغبوق حبيب) تفصح عن تلك المشاعر الأبوية الصادقة التي تغري المخبَّل بإيثار الابن بالنوق والحلال، وكان الشاعر ضنيناً بالرزق.

وتحفزه الرغبة في استعادة الابن إلى تهويل خطر الحرب والمبالغة في تضخيم الموقف، ثم نراه يحذره من الغرور بالشباب، فيعقد المقارنة بين حيوية شباب الابن وواقع الأب الهرم، ويسترسل في وصف مظاهر العجز مؤكداً قوة الدهر في إفناء العز والغنى، ولا يزال الشاعر يستميل الابن ويغريه بالعودة، فيجعل العقوق مشروطاً بالهجر، ويعظم من فعل الابن في العصيان، ويوظف الحوار في تذكيره برفاهية العيش في كنف والده، ولنلاحظ الفعل (ترعى) الذي نحس فيه معنى التخيير، فنتبين إشفاق الوالد على الولد، ورغبته في إغرائه بالعودة.

ويلوع حارثة بن صخر بإسلام ابنه جناب وهجرته إلى المدينة، فيبكي فقده بعبرات حزينة، يقول: [9]

تركتَ أباك بالأدْواتِ كلا ... وأمَّك كالعَجولِ من الظرابِ
فلا وأبيك ما باليتَ وَجْدي ... ولا شوقي الشديدَ ولا اكتئابي
ولا دمعا تجودُ به المآقي ... ولا أسفي عليك ولا انتحابي
فعمرك لا تلوميني ولومي ... جناباً حين أزمعَ بالذهابِ
يُذْكِّرُنِي الحمامُ صفيَّ نفسي ... جَناباً مَنْ عَذيري من جَنابِ

أردتَ ثـــــوابَ ربِّــــك فــــي فراقــــي وقربــــــي كـــــان أقـــــربَ للثــــوابِ

ففي اللهجة الخطابية تعنيف ولوم يعظمان إثم الابن في الهجرة، وتأتي صورة العجول من الظراب فتعمق الإيحاء بالعجز والانهزام، وأشد ما يؤلم الشاعر أن يتجاهل الابن عواطفه النبيلة، ويهاجر غير مكترث بالبكاء والنحيب، وما نهي الشاعر المرأة عن لومه وحضها على لوم جناب إلا إمعان في تعظيم فعلته، فهو مؤرق بلوعة الفراق، يهتاج لهتاف الحمام وصداحه. ولنتأمل التعبير (من عذيري من جناب)، فهو يكثف الإيحاء بعمق فاجعة الفقد والاغتراب، وهو ما يزال يضخم ذنب الابن، فيحذره مغبة عصيان أبيه، ويؤكد إخفاقه في نيل الثواب وكسب رضا الله عز وجل.

وهذا حكيم بن قبيصة الضبي يهجره ابنه للاستقرار في الأمصار، فنراه يغريه بالحياة البدوية، ويبين فضائلها ومزاياها، راغباً في استعادة الابن فيقول:[10]

لعمــــرُ أبــــي بِشــــرٍ لقــــد خانَــــه بِشــــر علـــى ســـاعة فيهـــا إلـــى صـــاحب فقـــرُ

فمـــا جنَّـــةَ الفـــردوس هـــاجرت تبتغـــي ولكـــنْ دعـــاك الخبـــزُ أحســـبُ والتمـــرُ

أقْـــــرصٌ تصـــــلي ظهـــــره نبطيَّـــــةٌ بتنـــــورها حتَّـــــى يطيـــــرَ لـــــه قشـــــرُ

أحـــــبُّ إليـــــكَ أم لقـــــاحٌ كثيـــــرةٌ معطَّفَـــــةٌ فيهـــــا الجليلَـــــةُ والبِكْـــــرُ

كـــــأن أداوى بالمدينـــــــة عُلِّقَـــــتْ مـــــلاءً بأحقيهـــــا إذا طلـــــع الفجـــــرُ

كـــأن قـــرى نمـــلٍ علـــى ســـرواتها يُلَبِّـــدُهَا فـــي ليـــل ســـارية قطـــرُ

فإحساس الأب بخيانة الابن، يهول من فعلته في تفضيل الهجرة إلى الحواضر على البر بالوالدين، وتحت ضغط الإحساس بالكبر يصطنع الأب الحوار، ويوجهه لإقناع الابن بالعودة، فيذكره بطيب الحياة البدوية، ويظهر له المفارقة بين الأساليب المعيشية في الصحراء، ونمط الحياة الحضرية، ويوظف صورة النوق المكتنزة شحماً ولبناً في إغراء الابن بالعودة إلى بلاده.

وحين يؤسر الابن في سجون الأعداء، تتأجج عاطفة الحنين في نفوس الأمهات والأخوات اللواتي يبكين فقده، فيجسدن إحساسهن بالوحدة والاغتراب، ويظهرن تفجعهن حسرات مفعمة بالحزن واليأس؛ فأسر ضرار بن الأزور يوقد جمرة الحنين في صدر أخته خولة، فتفجرها صرخات مدوية تندب فرقة الأخ، وتتحسر على ماضي العيش الذي جمع بينهما، تقول:[11]

ألا يـــا غـــرابَ البـــينِ هـــل أنـــت مخبـــري فهـــــل بقـــــدوم الغـــــائبين تبشّـــــرْنا

لقـــــد كانـــــت الأيـــــامُ تزهـــــو لقـــــربهم وكنَّـــــا بهـــــم نزهـــــو وكـــــانوا كمـــــا كنّـــــا

ألا قاتـــــلَ اللهُ النَّـــــوى مـــــا أمـــــرَّه وأقبحـــــه مـــــاذا يريـــــدُ النَّـــــوى منـــــا

ذكـــــرتُ ليـــــالي الجمـــــع كنـــــا ســـــوية ففرَّقنـــــا ريـــــبُ الزمـــــان وشـــــتتْنا

لـــــئن رجعـــــوا يومـــــاً إلـــــى دار عـــــزِّهم لثمنـــــا خفافـــــاً للمطايـــــا وقبلنـــــا

ولـــــم أنـــــسَ إذ قـــــالوا ضـــــرارٌ مقيـــــد تركنـــــاه فـــــي دارِ العـــــدوِّ ويمَّمنـــــا

ســـــلامٌ علـــــى الأحبـــــابِ فـــــي كـــــلِّ ســـــاعةٍ وإنْ بعـــــدُوا عـــــنَّا وإن مُنعـــــوا منـــــا

فاستفهام الشاعرة عن رجوع الغائبين رغبة في التنفيس عن الحسرات التي تلذع كبدها بفراق الأخ. لقد كان ضرار ناصرها ومعينها في الحياة، وقولها (كنا بهم نزهو وكانوا كما كنا) تعبير عن عمق الروابط الأسرية التي تصون المرء، وتضمن له العزة، وما تعهدها بتقبيل خفاف المطايا إلا إقرار باليأس من عودة الأخ سالماً من الأسر.

وتلوع مزروعة بنت عملوق الحميرية بأسر ولدها صابر بن أوس، فنراها تندب فقده، مظهرة من المواجع ما تنفطر له الأكباد، تقول: [12]

أيـــا وَلـــدي قـــد زاد قلبـــي تلهُّبـــاً ... وقـــد أحرقـــت منـــي الخـــدودَ المـــدامعُ
وقـــد أضـــرمتْ نـــارُ المصـــيبةِ شـــعلةً ... وقـــد حميـــت منَّـــا الحشـــا والأضـــالعُ
وأســـأل عنـــكَ الركـــبَ كـــي يخبروننـــي ... بحالـــكَ، كيمـــا تســـتكنُّ المـــدامعُ
فيـــا ولـــدي مـــذ غبـــتَ كَـــدَّرْت عيشـــتي ... ففقلبـــيَ مصـــدوعٌ وطرفـــيَ دامـــعُ
وفكـــريَ مقســـومٌ، وعقلـــي مـــولَّهٌ ... ودمعـــيَ مســـفوحٌ، وداري بلاقـــعُ
فـــإن تـــكُ حيـــاً صـــمتُ للنـــاس حجـــة ... وإن تكـــن الأخـــرى، فمـــا العبـــد صـــانعُ؟!

فالأبيات تزخر بعواطف وجدانية متقدة، تفصح عن لهيب الشوق الذي يكوي أضلع الشاعرة، وتحرق خدودها بالمدامع، فما سؤالها الركبان عن ابنها إلا تمهيد للجواب المفعم باليأس (ولا منهم من قال إنك راجع) تردفه تلك الآهات التي تصدرها من قلب تصدع بلوعة الفرقة، وهي تبالغ في تهويل الفاجعة التي شتتت عقلها، وسفحت دمع عينيها، والعبارة (فما العبد صانع) إقرار بالضعف والانهزام يفصح عن حيرة الشاعرة وترددها النفسي.

وربما كان الأسير أكثر إحساساً بالغربة، فهو ينتظر قتله على يد خصوم الإسلام؛ ولذلك تتفجر في نفسه زفرات الحنين إلى الأهل، فيصوغها أشعاراً وجدانية يندب فيها الإقامة في ديار الغربة، ويعبر عن رغبته في العودة إلى كنف الأسرة، ينعم بحنان أفرادها، ويستمتع بمواصلة العيش بينهم؛ فمن غربة الأسر تتفجر مشاعر ضرار بن الأزور عن حنين فياض إلى الأهل، فنراه يبث معاناته إلى أخته خولة، ويظهر حزنه وقلقه على مصيرها، يقول [13]

ألا أيُّهـــا الشَخصـــانِ بـــالله بلِّغـــا ... ســـلامي إلـــى أهلـــي بمكَّـــة والحِجْـــرِ
ومـــا بـــي وبـــين الله مـــوتي وإنَّمـــا ... تركـــتُ عجـــوزا فـــي المهامـــه والقفـــرِ
وكنـــت لهـــا ركنـــاً تعـــد رحالـــه ... وأكرمهـــا جهـــدي وإن مســـني فقـــري
وأحمـــي حماهـــا أن تُضـــام ولـــم أزل ... لهـــا ناصـــراً فـــي موقـــف الخيـــر والشـــرِ
تقـــول وقـــد حـــان الفـــراق لحينـــه ... ألا يـا أخـي مـا لـي علـى البين من صبرِ وقولا
ألا أبلغاهـــا عـــن أخيهـــا تحيـــةً ... غريـــبٌ مـــاتَ فـــي قبضَـــةِ الكفـــرِ
ألا يـــا حمامـــاتِ الأراك تحمَّلـــي ... رســـالةَ صَـــبٍّ لا يُفيـــقُ مـــنَ السُـــكْرِ
وإن ســـألتْ عنـــي الأحبـــةُ خبِّـــري ... بـــأن دمـــوعي كالســـحاب وكـــالقطرِ

فالأبيات تفيض بعواطف رقيقة يبثها الشاعر إلى أهله، ويبدو ضرار قلقاً بشأن أخته؛ فبأسره تفتقد خولة كفيلها في الحياة؛ ولذلك نراه يجسد لوعة افتقاد الأمن على لسانها (ألا يا أخي ما لي على البين من صبر) ويهديها تحياته راغباً في البوح بالمعاناة (وقولا غريب مات في قبضة الكفر)، ولنصغ إلى جرس الألف واللام في (ألا) فنسمع صراخ الشاعر وتأوهاته، ونتلمس مقاساته الهجر والفراق. ولنلاحظ الفعل (تحملي) وما فيه من المبالغة في الإلحاح على الحمامات بحمل الرسالة، وهو إلحاح ينم على لهفة متحرقة إلى التنفيس عن المواجد والأشواق، وَمَنْ

أجدَرُ من الحمامات بحمل الرسالة إلى الأحبة بأمانة، فهن من عرفن الاغتراب عن الوطن، وذقن لوعة البين، ويشبه ضرار دموعه بالمطر مبالغاً في تصوير معاناته، ولا عجب فالشاعر أسير بين يدي الروم الذين يخططون لقتله، ولذلك نراه ينفث أشواقه زفرات مرّة تحكي إحساسه بفراق الأهل والوطن.

لقد كان العيش في كنف الأهل عزة ومنعة أدركت قيمتها الشاعرات؛ لأنهن نسوة مستضعفات لا يقدرن على مواجهة ظروف الحياة، وتأمين متطلباتها بمفردهن، ولذلك كان حنينهن إلى الأهل حنيناً إلى الأمان، عبرن فيه عن افتقادهن الحماية والاستقرار؛ فخولة بنت الأزور تفتقد في أسرها لدى القبط المنقذ الذي يخلصها من ذل الأسر، ويعيدها إلى وطنها مكرمةً مصونة، تقول: (14)

لهفي على بطَلٍ قد كان عدَّتَنا ... فيهِ العفافُ وفيهِ الدّينُ والأدبُ
قد كانَ ناصرَنا في وقت شدَّتِنا ... أعني ضرار الذي للحرب يُنتدبُ
فيه الحميَّةُ والإحسانُ عادتُه ... فيه التعصبُ والإنصافُ والحسبُ
لو كانَ يقدرُ أنْ يرقى مراكبُهُ ... كان العدوُّ فَنِيْ والحرب تلتهبُ
أو كان خالدُ فينا حاضراً وطناً ... لزال عنا الذي نشكو وننتحبُ

فالشاعرة تفتقد في أسرها الناصر والمعين، فتعظم في نفسها مكانة الأخ، وتصوغ لضرار صورة مثالية تظهره أهلاً للشدائد والحروب، ولكنَّ ثمة أمراً يعيقه اليوم عن أداء واجبه تجاه أخته، ولذلك تتجه الشاعرة بمخيلتها إلى خالد بن الوليد تستنجد به، وتجد تعويضها عن افتقاد الأمان في ظل الأخ.

وارتحال المرأة إلى وطن الزوج، يعمق إحساسها بالاغتراب عن الأهل، ويضاعف شعورها بافتقاد الحماية، فهذه نائلة بنت الفُرافصة تحمل زوجة إلى عثمان بن عفان (رض)، فتبث أخاها لواعج النفس المتألمة لفقد الأهل، تقول (15) :

أحقاً تُراه اليوم ياضبُّ أنني ... مصاحبةٌ نحوَ المدينةِ أركبا
لقد كانَ في فتيانِ حصنِ بنِ ضمضمٍ ... لكَ الويلُ ما يُجزي الخباءَ المحجبا
قضى الله حقاً أن تموتي غريبة ... بيثربَ لا تلقينَ أماً ولا أبا

فالاستفهام (أحقاً) إيحاء بما يعتمل في داخل المرأة من صراع، فاليوم تنأى نائلة عن ذويها لتعيش مع الزوج في وطنه، فتحس بمرارة الاغتراب عن الوطن، وتفتقد حماية الأهل وعزة الانتساب إليهم، فتبدي تألمها للموت بمعزل عنهم.

ومن الحنين إلى الأهل الرثاء الذي يفصح فيه الشاعر عن مواجده وأشواقه إلى المرثي، فلا نراه يعدد المناقب والخصال فحسب، بل يتجاوزها إلى بكاء حار، يعبر فيه عن حرقة الفؤاد ونيران الفقد؛ فلبيد بن ربيعة يكابد ألم فراق أخيه أربد، فيصعد حزنه، ويحث عينيه على مواصلة البكاء، فيقول: (16)

لعمرُ أبيكِ الخيرِ يا ابنَةَ أربد ... لقد شفَّني حزنٌ أصابَ فأوجعا
فراقُ أخٍ كان الحبيبَ ففاتني ... وولّى بهِ ريبُ المنونِ فأسرعا
فعينيَّ إذْ أوْدَى الفراقُ بأربدٍ ... فلا تَجْمُدا أن تستهلا فتدمعا

فهو يبث شكواه إلى ابنة أربد مفصحا عن مواجده تجاه الفقيد، فقد أهزل موته الشاعر، وحرمه متعة التعايش الأخوي؛ ولذلك نراه يحث عينيه على البكاء راغباً في مداومة التفجع وإظهار الحسرات.

ويُفجع متمم بن نويرة بمقتل أخيه مالك في حروب الردة، فلا تفارقه الهموم والأحزان، ويقضي ليله مؤرقاً بالوجد والحنين، يقول: [17]

وهـــيَّجَ لـــي حزنـــاً تـــذكُّرُ مالـــك ... فمـــا نمـــتُ إلا والفـــؤادُ مَـــروعُ
إذا عبـــرةٌ ورَّعتُهـــا بعـــدَ عبـــرةٍ ... أبـــتْ واســـتهلَّت عبـــرةٌ ودمـــوعُ
كمـــا فـــاضَ غـــربٌ بـــينَ أقـــرُنِ قامـــةٍ ... يـــروي دبـــاراً مـــاؤه وزروعُ
جديـــدُ الكُلـــى واهـــي الأديـــم تبينُـــه ... عـــن العِبْـــر زوراءُ المقـــامِ نَـــزوعُ
لـــذكرى حبيـــبٍ بعـــدَ هـــدءٍ ذكرْتُـــه ... وقـــد حـــانَ مـــن تـــالي النجـــوم طلـــوعُ
إذا رقـــأتْ عينـــايَ ذكَّرنـــي بـــهِ ... حمـــامٌ تنـــادى فـــي الغصـــونِ وُقـــوعُ
دعـــونَ هـــديلا فاحتزنْـــتُ لمالـــكٍ ... وفـــي الصَّـــدْرِ مـــنْ وَجْـــدٍ عليـــهِ صُـــدوعُ

فالشاعر مؤرق بلوعة الفقد، تنساب دموعه رغماً عنه، وهو يشبه غزارة الدموع بمياه تسيل من دلو ويسترسل في وصف جزئيات الدلو، فيجعل رقاعه جدداً وجلده واهياً، ويصف جرابه بالاعوجاج، فيتيح للدلو الاضطراب، وللمياه الانسياب، ويمنح ذاته فرصة التنفيس عن مشاعر القلق والاضطراب، والمبالغة في إظهار الحزن والتفجع، وإن سكنت عينا الشاعر عن البكاء أهاجه تنادي الحمام على الغصون، فينكأ جراح الفقد، ويؤجج نيران الشوق (وفي الصدر من وجدٍ عليه صدوع).

وهذا فارس الفتوحات الإسلامية خالد بن الوليد يأتيه نعي ابنه سليمان في معركة ضد الروم، فيتقد صدره بلوعة الفقد، وأنين الحنين الموجع، فيقول[18]

جـــرى مـــدمعي فـــوق المحـــاجر منهمـــلْ ... وحـــرّ فـــؤادي مـــن جـــوى البـــين يشـــتعلْ
وهـــامَ فـــؤادي حـــين أُخبـــرت نعيَـــه ... فليـــتَ بشـــيرَ البـــين لا كـــان قَـــدْ وَصَـــلْ
لقـــد ذوَّبَ الحشـــا وأجـــرى مـــدامعي ... صـــبيباً وعـــن نـــارِ الفـــؤاد فـــلا تســـلْ
ســـأبكي عليـــه كـــلَّ مـــا قبـــل المســـا ... ومـــا ابتســـم الصُّـــبحُ المنيـــرُ ومـــا ابتَهـــلْ

فالأبيات تفيض بمشاعر وجدانية صادقة، يجسد فيها الشاعر حرقة الفقد، ونيران الشوق، ولنلاحظ التعبير (وعن نار الفؤاد فلا تسل) الذي يعمق الإيحاء بالمعاناة، وما مداومة البكاء إلا تعبير عن الرغبة في التنفيس عن الأحزان والمواجد. وجدير بالذكر أن طغيان الشعور الأبوي لم يشغل خالداً عن قدسية الواجب والاستمرار في أداء دوره البطولي، بل كان فقد الابن محرضاً على النيل من أعداء الإسلام، والاستمرار في الفتوحات.

وهذا أبو ذؤيب الهذلي يُفجع بفقد بنيه الخمسة في طاعون مصر، فيشغله البكاء والنحيب عن تعداد مآثرهم، ويقف متأملا مصائب الدهر بحسرةٍ يشوبها الحنين إلى المفتقد، يقول: [19]

أودى بنـــــيَّ وأعقبـــــوني حســـــرةً ... بعـــــد الرقـــــاد وعبـــــرةً لا تقلـــــعُ
ولقـــــد أرى أن البُكـــــاء ســـــفاهةٌ ... ولســـــوف يُولـــــعَ بالبُكـــــا مَـــــنْ يُفْجَـــــعُ
ســـــبقوا هـــــويَّ وأعنقـــــوا لهـــــواهم ... فتُخُرِّمـــــوا ولكـــــلِّ جنـــــبٍ مَصْـــــرَعُ

فغبـــــرتُ بَعـــــدهم بعـــــيشٍ ناصـــــبٍ وإخـــــال أنِّـــــي لا حـــــقٌ مســـــتتبعُ

فـــــالعينُ بعـــــدَهم كـــــأنَّ حـــــداقَها سُـــــمِلَتْ بشـــــوكٍ فهـــــي عـــــورٌ تـــــدمعُ

حتـــــى كـــــأنِّي للحـــــوادثِ مـــــروةٌ بصـــــفا المشـــــرَّق كـــــلَّ يـــــومٍ تُقـــــرَعُ

تضج الأبيات بأنين الفقد ولوعة التفجع، فتكرار جرس الهمزة يحكي صرخات الألم، ويعبر عن أزمة الاغتراب عن البنين، ويعقبه تكرار جرس العين، وكأننا نسمع في صداه عويل النفس المفجوعة بقسوة الأقدار، فنعيش مع الشاعر حرقة التحسب للمصير (وإخال أني لاحقٌ مستتبع)، ويجعل أبو ذؤيب عينيه الدامعتين مسمولتين بشوكٍ، فيمعن في تصوير الحزن والأسى، ثم يجعل نفسه حجراً تتقاذفه الأقدار والنوائب (بصفا المشرق كل يوم تقرع)، فيقوي نبض الإيحاء بصموده في وجه الزمان، ويضفي على الصورة بعداً تأملياً أفرزته تجربته الذاتية في مقارعة الخطوب، ويفسح لذاته المزيد من التفجع وإظهار الحسرات.

ويطول ليل نهشل بن حري حزناً على استشهاد أخيه مالك في موقعة صفين، فيجد في مداومة البكاء ما يخفف عنه نيران الشوق والحنين، يقول: [20]

أَبـــى جَزَعـــي فـــي مالـــكٍ غيـــرَ ذكـــره فـــلا تعـــذليني أنْ جَزِعْـــتُ أُمامـــا

ســـأبكي أخـــي مـــا دام صـــوتُ حمامـــةٍ يـــؤرّقُ مـــن وادي البِطـــاحِ حَمامـــا

وأبعـــثُ أنواحـــاً عليـــهِ بسُـــحرةٍ وتـــذرفُ عينـــاي الـــدُّموعَ سِـــجاما

يقلـــنَ ثـــوى ربُّ الســـماحة والنـــدى وذو عـــزَّةٍ يـــأبى بهـــا أن يُضـــاما

يمعن الشاعر في إظهار حزنه وتفجعه، فيصور نفسه أرقاً يوقظ النيام، لقد كان موت مالك مصيبة حرمت نهشلاً رابطة الأخوة الدموية؛ ولذلك نراه يديم البكاء، ويجعله مقروناً بهتاف الحمامة الثكلى التي تؤرق حمام البطاح، فيمنحه التجدد والاستمرارية إلى ما لا نهاية، ويعبر عن رغبته في إقامة مأتم تنوح فيه النساء يندبن فيه مالكاً، ويعددن مآثره التي تشبع حنين الشاعر إليه، وتخفف عنه ألم الفقد.

ومن الحنين إلى الأهل حنين الشاعر إلى القوم (فأهل الرجل أقرباؤه وعشيرته وذوو قرباه)[21] جمعتهم أسرة قبلية واحدة، تقوم على روابط النسب والدم، يتضام أفرادها تحت رابطة الأخوة القبلية، وتتحد جهودهم في سبيل إعلاء شأن القبيلة وتحقيق أمجادها، ويلتزم كل منهم نصرة أخيه والتعصب له. ولم تكن رابطة التجمع القبلي أقل شأناً من الرابطة الأسرية، إذ كان حنين الشاعر إلى القوم بمنزلة الحنين إلى الأهل، فالقبيلة كيانٌ واسع يمنح الفرد الأمن والحماية والاستقرار، ويتيح له الإحساس بكيانه؛ ولذلك نرى الشاعر يبكي فراق أفراد القوم ويندب إقفار الديار، ويتأسف لتقلبات الدهر التي تحول دون تواصله معهم؛ فهذا البُريق الهذلي يرتحل أبناؤه مع القوم المهاجرين إلى مصر، فيتألم من الوحدة، ويكابد حسرات الفقد، ويأسف لتناقض العصرين، فيقول[22]:

وإن أمـــسِ شـــيخاً بـــالرجيع وولـــدةً ويصـــبح قـــومي دون دارهـــمُ مصـــرُ

أُســـائلُ عـــنهم كلمـــا جـــاءَ راكـــبٌ مقيمـــاً بـــأملاحٍ كمـــا رُبِـــطَ اليَعْـــرُ

فمـــا كنـــت أخشـــى أن أعـــيشَ خلافَهـــم بســـتَّةِ أبيـــات كمـــا نَبَـــتَ العِتْـــرُ

بمـــا قـــد أراهـــم بـــين مـــرٍّ وشـــابةٍ بكـــل مســـيلٍ مـــنهم أنـــسٌ عبـــرُ

نشـــقُّ الـــتِّلاع الحـــوّ لـــم تُـــرْعَ قبلنـــا لنـــا الصَّـــارخ الحثحـــوثُ والـــنَّعمُ الـــدَّثْرُ

لنـــا الغـــورُ والأعـــراضُ فـــي كـــل صَـــيْفَةٍ وذلـــكَ عَصْـــرٌ قَـــدْ خَلاهـــا وذا عَصْـــرُ

فما يحزن الشاعر رحيل أبنائه وأفراد قومه إلى مصر، وهو يجسد إحساسه بالوحدة، من خلال صورة اليعر الذي يُربط طعماً للأسد في زريبة الماعز، ويعمق الإيحاء بالضعف والانهزام، ويمعن البريق في تعظيم الفاجعة، فيبدي دهشته من فعل الزمان الذي فرق بينه وبين أهله، (فما كنت أخشى أن أعيش خلافهم)، ويوظف الصورة التشبيهية (كما نبت العتر) في تصوير الوحشة والانفراد، مظهراً تحسره على ماضي العيش مع القوم في عزةٍ ومنعةٍ (لم ترع قبلنا)، تبددتا مع رحيل العصر الجاهلي ومجيء الإسلام (وذلك عصرٌ قد خلاها وذا عصر).

ويحن أسامة بن الحارث إلى أبناء قومه الذين عصوا نصحه ، فهجروا موطنهم مخلفين في نفس الشاعر ألم الإحساس بلوعة الفقد ومرارة الافتراق عن الأهل والعشيرة ، فيقول[23]:

تـــذكَّرتُ إخـــواني فبـــتُّ مُســـهَّدا ... كمـــا ذكـــرتْ بـــوَّاً مـــن الليـــل فاقـــدُ
لعمـــري لقـــد أمهلـــتُ فـــي نهـــي خالـــدٍ ... عـــن الشـــأم إمـــا يعصـــينك خالـــدُ
وأمهلـــــتُ فـــــي إخوانـــــه فكأنَّمـــــا ... يســـمَّعُ بـــالنَّهي النعـــامُ الشـــواردُ
فقـــلتُ لـــهُ لا المـــرءُ مالـــكُ نفســـهِ ... ولا هـــو فـــي جـــذْم العشـــيرةِ عائـــدُ
أَســـيتُ علـــى جـــذمِ العشـــيرة أصـــبحتْ ... تقـــوَّرُ منهـــا حافَـــةٌ وطرائـــدُ

فصورة الأم الثكلى تسهم في تهويل الإحساس بفاجعة الفقد، ولنلاحظ الفعل (أمهلتُ) وما فيه من تكثيف إيحائي بمحاولات الشاعر ردع القوم عن الهجرة ، وتأتي صورة النعام الشارد، فتوضح تشتت شملهم، وتؤكد عصيانهم نصح الشاعر، تردفها الاستعارة (تقور في حافاتها وطرائد) التي تعمق الإيحاء بتمزق الكيان القبلي وشرح الانفصال عن الجذم، اللذين حرما الشاعر أنس التواصل مع الأهل والقوم

ومن الحنين إلى القوم حنين ابن مقبل إلى قومه بني عامر، الذين ارتحلوا عن ديارهم تاركين الشاعر يكابد لوعة الاغتراب، وأسى افتقاد الأمن والاستقرار، يقول تميم:[24]

ألا يـــــا لَقـــــومٍ للـــــديارِ ببـــــدوةٍ ... وأنَّـــى مـــراحُ المـــرءِ والشـــيبُ شـــاملُهْ
وللـــدَّار مـــن جنبـــي قَـــرورى كأنَّهـــا ... وحـــيٌّ كتـــابٍ أتبعتْـــهُ أناملُـــهْ
صـــحا القلـــبُ عـــن أهـــل الرِّكـــاءِ وفاتـــه ... علـــى مأسَـــلٍ خلائُـــه وحلائلُـــهْ
أخـــو عَبَـــراتٍ ســـيقَ للنَّـــاسِ أهلُـــه ... فـــلا اليـــأسُ يُســـليه، ولا الحـــزنُ قاتلـــهْ

فهو يندب القوم متحسراً على إقفار الديار، والاستفهام (وأنى مراح المرء والشيب شامله) إقرار باليأس من عودة زمان الوصال مع القوم، وتؤدي ألفاظ اللغة وتعابيرها دورها في الإيحاء بالمشاعر والأفكار، فعبارة (أخو عبرات) تعمق دلالات البكاء والتفجع، ويأتي الفعل (سيق) بمعناه ومبناه، فيوحي بخضوع الشاعر والقوم للنظم والمستجدات الإدارية خضوعاً أملته طبيعة الحياة الإسلامية الجديدة، ولنلاحظ قوله (فلا اليأسُ يسليه، ولا الحزن قاتله) فهو إيحاءٌ بالتردد النفسي، وتعبير عن أزمة الاغتراب وعمق الصراع.

ويبكي لبيد بن ربيعة هلاك قومه بني عامر في إثر هجرتهم إلى الأمصار، ويبدي حزنه للحرمان من التواصل معهم، فيقول[25] :

هلَكـــتْ عـــامرٌ فلـــم يبـــقَ منهـــا ... بريـــــاض الأعـــــرافِ إلا الـــــديارُ
فعلـــــى عـــــامرٍ ســـــلامٌ وحمـــــدٌ ... حيـــثُ حلـــوا مـــن الـــبلاد وســـاروا

لقد كان حنين لبيد إلى القوم حنيناً إلى مواصلة العيش معهم في ظل أسرة قبلية واحدة، تجمع بين أفرادها أواصر النسب وروابط الدم؛ ولذلك فهو يهديهم تحياته المفعمة بالأشواق أينما ارتحلوا، مؤكداً ولاءه لهم وحنينه إلى وصالهم.

وحين ينضم الشاعر إلى الدين الإسلامي، يتحول ولاؤه إلى الجماعة الإسلامية التي تضحي بدورها كياناً أسرياً، تقوم العلاقة بين أفراده على رابطة الأخوة الإسلامية،وتتحد أهدافهم في سبيل إحياء كلمة الدين وإعلاء شأنه ،وكان استشهاد الأفراد في سبيل الدفاع عن الإسلام غاية المسلمين ومناهم، لكنه لم يمنع إحساس بعض الشعراء بعمق فاجعة الفقد، التي ابتليت بها الجماعة الإسلامية ، وكان رثاؤهم للقتلى ضرباً من التفجع يدفعه شوق عارم إلى الحفاظ على الكيان الإسلامي، فكعب بن مالك يبكي قتلى المسلمين في مؤته، ويشكو همومه، معبراً عن لوعة الحزن، وأسى الفقد، يقول[26] :

نـــامَ العيـــونُ ودمـــعُ عينِـــك يهمـــلُ ... ســـحّاً كمـــا وكَـــفَ الطِّبـــابُ المخضـــلُ
فـــي ليلـــةٍ ورَدَتْ علـــيَّ همومُهـــا ... طـــوراً أحـــنُ وتـــارةً أتململـــلُ
واعتـــادني حـــزنٌ فبـــتُ كـــأنني ... ببنـــات نعـــشٍ والسِّـــماك مُوَكَّـــلُ
وكأنمـــا بـــين الجـــوانح والحشـــا ... ممـــا تـــأوّبني شـــهابٌ مـــدخلُ
وجـــداً علـــى النَفَـــرِ الـــذين تتـــابعوا ... يومـــاً بمؤتـــةَ أُســـندوا لـــمْ يُنْقَلـــوا

فتوجيه الخطاب إلى الذات بمنزلة حوار داخلي يفصح عن أرق الشاعر وحزنه، وهو يشبه غزارة دموعه بمياه تسيل من طباب مبتل، فيعنى بتصوير المواجد والأشواق، ولنلاحظ قوله (طوراً أحن وتارةً أتململ) وما فيه من الإيحاء بعمق الصراع الذي يكتنف ذات الشاعر ، وتأتي الصورة الإيحائية (كأنني ببنات نعشٍ والسماك موكلُ)، فتعمق دلالة التعبير عن المعاناة، وتهويل أزمة الأرق والاضطراب، وهو يصور اتقاد نيران الحنين في صدره، فيوظف الصورة الإيحائية (تأوبني شهابٌ مدخلُ) في إظهار الصبابة والشوق إلى إخوانه المسلمين، الذين بذلوا الروح فداءً للإسلام، وتركوا الشاعر يتجرع حسرات موتهم، ومرارة افتقادهم.

ويبكي حسان بن ثابت قتلى مؤتة بحرقة نفسٍ، لوّع صاحبها بفقد أهله من أفراد الجماعة الإسلامية، فيقول[27]:

تـــأوَّبني ليـــلٌ بيثـــربَ أعســـرُ ... وهـــمٌ إذا مـــا نـــوَّم النـــاسُ مســـهرُ
لـــذكرى حبيـــب هيَّجـــت ثَـــمَّ عبـــرةً ... ســـفوحاً وأســـبابُ البكـــاء التـــذكرُ
بـــلاءٌ وفقـــدان الحبيـــب بليَّـــةٌ ... وكـــم مـــن كـــريم يُبتلـــى ثـــم يصـــبرُ
رأيـــتُ خيـــارَ المـــؤمنين تـــواردوا ... شـــعوبَ وقـــد حُفَّـــتُ فـــيمن يـــؤخرُ
فـــلا يُبْعـــدنَّ الله قتلـــى تتـــابعوا ... بمؤتـــة مـــنهم ذو الجنـــاحين وجعفـــرُ
وزيدٌ وعبدُ الله حين تَتابعوا ... جميعاً وأسبابُ المنيةِ تخطرُ

ففي تحديد المكان بالتسمية الجاهلية (يثرب) إيقاعٌ نفسي يؤكد أنه أضحى مبعث ألم الشاعر وأرقه، فهو موطن الأحبة المسلمين، الذين مني حسان بافتقادهم؛ ولذلك نراه يبكيهم بحسرة، ويعظم من هول افتقادهم، فيوظف الجناس (بلاء – بلية – يبتلى) في تقوية الإيقاع، والإيحاء بجسامة المصاب، ولعل في قوله (وكم من كريم يبتلى

فيصبر) ما يعبر عن رغبة الشاعر في التعزي والصبر، وترديده لأسماء القتلى تعظيم لهم، يفصح عن تصاعد الوجد في نفسه، ويعبر عن حنينه إلى إخوته المسلمين.

ويعيش بعض الشعراء بمعزل عن الأهل والقوم، فينصرفون إلى تحقيق ذواتهم بعيداً عن إطار الأسرة أو القبيلة، لكن الانشغال بالسعي واليأس من مساعدة الأهل لا يمنعان حنين بعضهم إلى حياة أسرية، تمنحهم الإحساس بالوجود والكينونة، وتلبي متطلباتهم الإنسانية، فقد لوع الشماخ بن ضرار الذبياني بغدر الأهل، وخيانة الأحبة، فراح يشق طريقه في الحياة بمفرده، ساعياً إلى تامين متطلباته المعيشية، لكن الاعتماد على الذات لم ينسه الحاجة إلى العيش في كنف الأسرة، ولعل الشماخ كان يخجل من التصريح بتلك الحاجة، فيوظف بعض الصور الجزئية العميقة الإيحاء في إشباع حنينه إلى كيان أسري يجمعه وأهله، ويخلصه من غربة الوحدة والانعزال، يقول[28]:

وَلُـــوْدَيْنِ للبـــيض الهجـــان وحالـــكٌ ... مـــن اللـــون غِرْبيـــبٌ بهـــيمٌ عَلاهُمـــا
إذا اجتهـــدا التَّـــرويحَ مـــدَّا عجاجـــةً ... أعاصـــيرَ ممـــا يســـتثير خُطاهمـــا
وسِـــرْبَيْن كُـــدْرِيّيْنِ قـــد رُعْـــتُ غـــدوةً ... علـــى المـــاء معـــروفٌ إلـــي لُغاهُمـــا
إذا غـــادرا منـــه قطـــاتَيْن ظلَّتـــا ... أديـــمَ النَّهـــارِ تطلبـــان قَطَاهمـــا
وإنّـــي عَـــداني عـــنكُمُ غيـــرَ ماقـــتٍ ... نـــواران مكتـــوبٌ علـــيَّ بُغاهمـــا

فالشاعر يفتخر بحيازته بيض النعامة والظليم، ولكنه يضمن فخره ما يعتري ذاته من أحاسيس الفقد ويمثل حنينه إلى المفتقدات، فيلتقط من الواقع البيئي صورة من النشاط الأسري بطلها الظليم والنعامة، فيصورهما يجدان في سيرهما، يثيران الغبار وقت الرواح إلى البيض، ويمثل من خلال حرصهما على البيض أنبل العواطف الأسرية، التي تزخر بها مشاعر الآباء والأمهات تجاه الأبناء، وكأن الشماخ يحن إلى رعاية أسرية تقوم على روابط متينة وحس عاطفي صادق، وهو الذي تحمل المسؤولية صغيراً بعد وفاة والده، ولم يجد في إخوته ما يسد هذا الفراغ، ولننظر إلى سرب القطا كيف يفرق الشاعر جمعهم، وتتخلف قطاتان عن الركب، فلا تستسلمان، بل تحثان السير بحثاً عن الجماعة، أفلا نجد في إلحاح القطاتين على الالتحاق بالسرب ما يعبر عن حاجة الشاعر إلى الحياة في ظل الأهل ؟ لقد كان ارتحال الشماخ في سبيل امرأتين بالغتا في النفور منه، ولعل إحدى هاتين الظبيتين المال، والأخرى الحياة الأسرية، وإذ يرتحل الشماخ في طلبهما بعيداً عن أهله وذويه (عداني عنكم)؛ فلأنه لا يستطيع تحقيق ذاته بينهم، وآلمه تنكر بعض إخوته له، ففضل الانفصال عنهم ونشدان أهدافه بعيداً منهم.

الخاتمة :

لقد كان الحنين إلى الأهل شعوراً إنسانيا عاماً، أفرزته جملة من العوامل الذاتية والموضوعية، كونت لدى الشاعر في صدر الإسلام أزمة الاغتراب عن الأهل والقوم، وأوقدت نيران الحنين في صدره.

ففي ظل النظم الاجتماعية والإدارية، عاش بعض الشعراء الشيوخ لوعة افتقاد الأبناء المهاجرين للمشاركة في الغزوات والفتوحات، أو الاستقرار في الأمصار، وأحسوا مرارة الضعف والانهزام، فصاغوا مواجدهم وأشواقهم بشفافية حركت في نفوس الخلفاء الشفقة والإحساس بالمسؤولية، وشجعتهم على تطبيق تعاليم الإسلام التي تحض الأبناء على الجهاد في بر الوالدين.

وإن قرت عيون الأباء بعودة الأبناء واطمأنت نفوسهم، فالأمهات ما زلن يندبن فقد الأسرى في سجون الأعداء يائسات باكيات، ويظهرن من الجزع والحزن ما تنفطر له القلوب والأكباد، ويعبرن عن عمق الروابط الأسرية التي تثير حنينهن إلى الإخوة والأبناء.

وتحت ضغط الإحساس بذل الأسر في بلاد الأعداء، تتأجج في نفس الأسير مشاعر الشوق إلى الأخوات والأمهات، فيبدي تألمه للاغتراب الذي يعيقه عن أداء واجبه في حمايتهن، وتأمين سبل الحياة لهن، ويظهر من القلق والخوف، على مصيرهن ما يعبر عن إحساسه بالمسؤولية تجاه الأهل.

وأسر بعض الشواعر وانتقال بعضهن الآخر إلى بلاد الزوج، يحركان في نفوسهن ألم الاغتراب عن الأهل، ويزيدان إحساسهن بافتقاد الحماية والرعاية، فيبكين عزة الانتماء والحرمان من الأهل.

وكان الموت غربة أبدية تستلب من الشاعر إخوته وأبناءه، وتضاعف إحساسه بقسوة الزمان، وتؤجج في صدره نيران الشوق والحنين إلى المفتقدين، فيبكيهم بحرقة وألم.

ووجد بعض الشعراء في هجرة القوم إلى الأمصار ما يمزق وحدة الكيان القبلي، ويعمق شرخ الانفصال عن القوم، فما فتئوا يندبون إخوتهم، ويظهرون استياءهم من تبدل الزمان الذي حرمهم متعة التواصل مع القوم والأهل، وأحس بعضهم الآخر في الانتماء إلى الجماعة الإسلامية نعمة الأخوة الدينية، فرثوا قتلى المسلمين بزفرات مرة تعبر عن عواطف حنين نبيلة تجاه إخوانهم المسلمين.

وقد صاغ الشعراء مواجدهم وأشواقهم تلك في سرد لغوي معبر، وأضافوا إليه بعض الصور الحسية العميقة الإيحاء، فحكوا معاناتهم بصدق، وعبروا عن مشاعرهم الإنسانية الصادقة تجاه ذويهم وقومهم.

واستقى الشماخ لوحته الفنية من وحي الطبيعة، وراح يصوغها بعناية ودقة،تنمان على مقدرة فنية في توظيف المحسوسات للإيحاء بالمشاعر والأفكار .

الإحالات:

(1) – ذيل الأمالي والنوادر، القالي 108، وهو أمية بن حرثان بن الأسكر الجندعي الليثي الكناني المصري، شاعر فارس مخضرم مات في خلافة عمر (رض) 20هـ (الأعلام 362/1)، وانظر المعمرون 85.

(2) – الإسراء 23.

(3) – الإسراء 24.

(4) – صحيح البخاري 148/21.

(5) – المعمرون والوصايا، السجستاني 86.

(6) – المعمرون 86– 87.

(7) – شرح أشعار الهذليين 1242/3–1243. وأبو خراش هو خويلد بن مرة أحد بني قرد ابن عمرو بن معاوية بن تميم بن سعد بن هذيل،عاش إلى زمن عمر بن الخطاب (الأعلام 373/2)، وانظر الشعر والشعراء 663/2.

(8) – شعراء مقلون 287– 289 ، وهي في الأغاني 190/13 – 191 والمخبل السعدي هو ربيعة بن مالك، وهو من بني شماس بن لأي بن أنف الناقة، من مخضرمي الجاهلية والإسلام(الأعلام 42/3)، وانظر الشعر والشعراء 420/2. أريب: ضنين، حريب: مسلوب، حوبة: إثم، حسيب: الله عز وجل، خبوب: وهو من الخب وهو ضرب من العدو

(9) – المعمرون 73، وهو حارثة بن صخر بن مالك بن عبد مناة بن هبل بن عبد الله بن كنانة بن بكر بن عوف بن عذرة بن زيد الله بن رفيدة بن ثور بن كلب بن وبرة، أدرك الإسلام ولم يسلم، المعمرون 72،

(10) – ديوان الحماسة، أبو تمام، التبريزي، ج389/2–390 وهو حكيم بن قبيصة الضبي، وجده ضرار بن عمرو أحد بني ضبة وقبيصة أبوه كان ممن شهد يوم الكلاب الثاني، هامش الحماسة 389/2– 390. اللقاح: النوق الغزيرة اللبن، الجليلة: الناقة العظيمة، البكر: التي تلد بطناً واحداً، أداوى: جمع إداوى وهي المطهرة، والأحقي: جمع حقو وهو من الإنسان معقد الإزار، السروات: جمع سراة وهي من كل شيء أعلاه، والسارية: سحابة تسري بالليل ويلبدها أي يصلبها.

(11) – فتوح الشام، الواقدي ج7/2، وهو ضرار بن مالك الأزور بن أوس بن خزيمة الأسدي، أحد الأبطال في الجاهلية والإسلام، توفي 11هـ (الأعلام 311/3)، وانظر الاستيعاب 746/2، وخولة أخته شاعرة من أشجع النساء في عصرها، توفيت 35هـ (الأعلام 372/2).

(12) – فتوح الشام 7/2، وهي مزروعة بنت حملوق الحميرية شاعرة من شاعرات العرب، (أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام 48/5–49)، وانظر فتوح الشام 7/2

(13) – فتوح الشام 11/2–12.

(14) – فتوح الشام 91/2.

(15) – معجم البلدان 430/5 (يثرب)، وهي نائلة بنت الفرافصة بن الأحوص الكلبية، خطيبة شاعرة، (الأعلام 303/8)، وانظر المحبر 396.

(16) – شرح ديوان لبيد ص173، وهو لبيد بن ربيعة بن مالك العامري أحد الشعراء الفرسان الأشراف في الجاهلية، أدرك الإسلام وأسلم، توفي 41هـ (الأعلام 104/6)، وانظر الاستيعاب 1335/3.

(17) – المفضليات،271 – 272، وهو متمم بن نويرة بن جمرة بن شداد بن عبيد بن ثعلبة بن يربوع بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم بن مر، توفي 30هـ (الأعلام 154/6)، وانظر الاستيعاب 1455/4. ورّعتها: كففتها، الغرب: الدلو العظيمة، القامة: بكرة البئر، أقرنها: قرناها، وهما حائطان أو خشبتان تعلق عليهما البكرة، الكلى: رقاع تكون عند أذن الدلو، الواهي: المتخرق، تبينه: تبعده، العبر: الناحية مثل الشط ونحوه، الزوراء: التي في جرابها عوج، فهو أشد لاضطراب الدلو فيها، نزوع: ركية قريبة القعر.

(18) – فتوح الشام 248/2، وهو خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي القرشي، أسلم قبل فتح مكة، توفي 21هـ (الأعلام 341/2)، وانظر الاستيعاب 427/2–430.

(19) – شرح أشعار الهذليين 1/4–10،و أبو ذؤيب هو خويلد بن خالد بن محرث من بني هذيل بن مدركة من مضر، شاعر فحل، مخضرم، أدرك الجاهلية والإسلام واشترك في الغزو والفتوح، (الأعلام 373/2)، وانظر الشعر والشعراء 653/2أعنقوا: أسرعوا.

(20) – شعراء مقلون 125، وهو نهشل بن حري بن ضمرة بن جابر بن قطن بن نهشل بن دارم، توفي 45هـ (الأعلام25/9)، وانظر الشعر والشعراء637/2.

(21) – لسان العرب (أهل) 28/11.

(22) – شرح أشعار الهذليين748/2-750. والبريق هو عياض بن خويلد، شاعر حجازي، معجم الشعراء 112 والرجيع: موضع، اليعر: الجدي، الذي يجعل للأسد في موضع الزريبة ليصطاد، والجمع أيعار، عبر: أي عظيم كثير، الصارخ: المغيث، الحثحوث: السريع، اصطرخنا: استغثنا، دثر: كثير.

(23) – شرح أشعار الهذليين 1295/3–1296، وهو أسامة بن الحارث الهذلي أحد بني عمرو بن الحارث، الإصابة 104/1 البو: جلد يحشى للفاقد ولدها يذبح أو يموت، فترأمه وتدر عليه، فإذا ذكرته حنت، أسيت: حزنت، تقور: تقطع، الطرائد: الأتباع.

(24) – ديوان ابن مقبل 239 . 240، وهو تميم بن أبي بن مقبل بن عوف بن حنيف بن قتيبة بن العجلان بن عبد الله بن ربيعة بن كعب بن عامر بن صعصعة، توفي 37هـ، (الاعلام71/2)، وانظر طبقات فحول الشعراء 143/1.

(25) – شرح ديوان لبيد 44 .45.

(26) – ديوان كعب مالك 205، وهو كعب بن مالك بن أبى كعب، واسم أبى كعب عمرو ابن القين بن كعب بن سواد بن غنم بن كعب بن سلمة بن سعيد بن علي بن أسد بن سادرة بن يزيد بن جشم بن الخزرج الأنصاري السلمي، توفي 50هـ (الأعلام 85/6)، وانظر الاستيعاب 1323/3.

(27) – شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري 235، وهو حسان بن ثابت بن المنذر الأنصاري، ويكنى أبا الوليد وأبا الحسام، وأمه الفريعة من الخزرج، عاش في الجاهلية ستين سنة، وفي الإسلام ستين سنة، توفي 54هـ (الأعلام 188/2)، وانظر الشعر والشعراء 305/1.

(28) – ديوان الشماخ311 – 312، والشماخ هو ابن ضرار بن سنان بن أمامة أحد بني سعد بن ذبيان، توفي 22هـ (الأعلام 252/3 . 253)، وانظر طبقات فحول الشعراء 123/1. الهجان: جمع هجينة وهي البيضاء، غربيب وبهيم: شديد السواد، كدريين: تثنية كدري وهو من القطا ما كان أغبر الظهر أسود باطن الجناح مصفر الخلق، قصير الرجلين في ذنبه ريشتان أطول من سائر الذنب، لغاهما: أصواتهما، أديم النهار: بياضه، عداني: صرفني، غير ماقت:حال من ضمير المتكلم في قوله (عداني)، النوار:الظبية النفور، وهي المرأة النفور من الريبة، بغاهما: طلبهما.

المراجع:

.....

1- القرآن الكريم.

2- الاستيعاب في معرفة الأصحاب،ابن عبد البر القرطبي،تحقيق علي محمد البجاوي، مطبعة نهضة مصر.

3- الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، وبهامشه الاستيعاب لابن عبد البر القرطبي، دار صادر بيروت، طبعة جديدة.

4- الأعلام،خير الدين الزركلي، بيروت، ط3، 1970.

5- أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام، عمر رضا كحالة، مؤسسة الرسالة، بيروت دمشق 1379هـ-1959.

6- الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، مصورة طبعة دار الكتب المصرية، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، بيروت.

7- ديوان ابن مقبل، تحقيق د. عزة حسن، مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم، دمشق 1381 هـ - 1962 م.

8- ديوان الحماسة، أبو تمام،شرح التبريزي، تحقيق محمد عبد القادر سعيد الرافعي، مكتبة النوري، دمشق.

9- ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني، تحقيق صلاح الدين الهادي، دار المعارف، مصر 1968م.

10-ديوان كعب بن مالك الأنصاري، تحقيق د.سامي مكي العاني، عالم الكتب، بيروت، ط2 1417هـ .1997م.

11-ذيل الأمال والنوادر، القالي، تحقيق محمد عبد الجواد الأصمعي، مطبعة السعادة، مصر ط3، 1373هـ . 1953م.

12-شرح أشعار الهذليين، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، ومحمود محمد شاكر، دار العروبة، القاهرة 1384هـ .1965م.

13-شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، عناية عبد الرحمن البرقوقي، دار الأندلس للطباعة والنشر، بيروت 1386هـ .1966م.

14-شرح ديوان لبيد بن ربيعة، تحقيق د.إحسان عباس، طبع الكويت ط2، 1984م.

15-شعراء مقلون، د.حاتم الضامن، عالم الكتب، بيروت ط1، 1407هـ 1987م.

16-الشعر والشعراء، ابن قتيبة، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار المعارف، مصر، ط2، 1386هـ .1967م.

17-صحيح البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي البخاري، شرح حميد الدين أحمد بن محمد الكرماني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1405هـ .1985م.

18-طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمحي، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، مصر 1400هـ - 1980م

19- فتوح الشام، الواقدي، تحقيق محمد السملوطي، المطبعة الكاستلية، مصر1282هـ.

20- لسان العرب، ابن منظور، تقديم أحمد فارس، دار صادر، بيروت، ط2، 1300هـ .

21- معجم الشعراء، المرزباني، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، مطبعة لجنة إحياء التراث العربي، مصطفى البابي الحلبي، مصر 1960م.

22- معجم البلدان، ياقوت الحموي، دار صادر، بيروت 1376هـ .1957م.

23- المعمرون والوصايا، السجستاني، تحقيق عبد المنعم عامر، دار إحياء الكتب العربية،عيسى البابي الحلبي، مصر 1961م.